مشكلة التجديد الفكري والفلسفي عند مالك بن نبي

The problem of intellectual and philosophical renewal of Malik bin Nabi

بوثلجة فايزة،

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله،
faziabouteldja768@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/01/30 تاريخ القبول: 2020/05/01

ملخص:

لقد ظهر في الفكر الإسلامي المعاصر خطاب جديد وتيار شامل سجل حضوره المميّز على الساحة الفكرية المعاصرة، لأنّه لم يقتصرعلى معالجة قضايا فقهية أو دعوة سياسية لمقاومة الاستعمار والتبعية، بل هو خطاب تجديد ينطلق من اعتبار الإسلام مشروعاً حضارياً متكاملاً، لا يخص بيئة مكانية ولا ظرفاً زمانياً ولا جنساً معيناً، وإنّما تميز هذا الخطاب في تبنيه لأدبيات الدين الأساسية وهذا ما يجعلنا نصطلح على تسميته ب: تيار التجديد الحضاري وقد ظهر هذا اللّون من التجديد إبان تردّي الحضارة الإسلامية والتي عاصرت ظهور" ابن خلدون" الذي أرجع سقوط الحضارة الإسلامية إلى انتشار البدع في الدين وما صاحبه من جمود في الفقه وشلل عقلي وتمزق سياسي، ممّا مهد للاستعمار.ولذلك فإنّ دعوة ابن خلدون التجديدية قدمت علاجاً مناسباً لازمة أمته، وقد أدرج أغلب الباحثين على اعتبار" مالك بن نبي" بمثابة" ابن خلدون" العصر الحديث،وأعظم وأبرز مفكر أولى عناية فائقة للفكر الحضاري الإسلامي منذ ابن خلدون، فهو من أرسى قواعد مدرسة التجديد الحضاري في الفكر الإسلامي المعاصر حيث إنفرد عن أقرانه من المصلحين بأنّه درس مشكلات الأمة الإسلامية إنطلاقاً من رؤية حضارية شاملة ومتكاملة، وقد أظهر تيار التجديد الحضاري عند" مالك بن نبي" مهارة فائقة في تشخيص النفسية الأوروبية وإكتشاف عيوبها" حيث رأى أنّ هناك نزعة عدوانية تجري في عروق الحضارة الغربية تجاه الآخرين،وأنّ كتابه (شاهد القرن) خير شاهد على هذه الحضارة بكلإيجابياتها وسلبياتها.وهنا يدق" بن نبي" ناقوس خطر الحضارة الغربية على العالم الإسلامي.

،

الكلمات المفتاحية: التجديد.، الفكر.، الثقافة.، مالك بن نبي.، الحضارة.، عالم الأفكار .، عالم الأشياء .، عالم الأشخاص.

Summary :

A new discourse and a comprehensive current has emerged in contemporary Islamic thought that recorded its distinguished presence on the contemporary intellectual scene, because it was not limited to addressing doctrinal issues or a political call to resist colonialism and dependency, but rather a renewal speech that proceeds from considering Islam an integrated civilized project that does not concern a spatial environment nor a temporal circumstance Not a specific gender, but this discourse was distinguished in its adoption of the basic literature of religion, and this is what makes us call it to be called: the civilization renewal stream. This color emerged from the renewal during the deterioration of Islamic civilization, which contemplated the emergence of Ibn-Khaldun, who attributed the fall of Islamic civilization to the spread of heresies in Deen and the companionship in jurisprudence, mental paralysis and political rupture, which paved the way for colonialism. Therefore, Ibn-Khaldun's call for renewal provided an appropriate treatment for his nation’s crisis, and most researchers have included Malik bin Nabi as Ibn-Khaldun, the modern era, and the greatest and most prominent thinker has paid great attention to Islamic civilizational thought since Ibn-Khaldun, as he established the rules of the school of civilizational renewal in contemporary Islamic thought. Where he devoted himself to his fellow reformers that he studied the problems of the Islamic nation based on a comprehensive and integrated civilization vision. The stream of civilizational renewal at Malik Bin Nabi showed a great skill in diagnosing European psychology and discovering its faults, where he saw that an aggressive tendency is taking place in the veins of Western civilization towards To others, and that his book (Watch the Century) is the best witness to this civilization, with all its pros and cons, and here, Bin Nabi bells the danger of Western civilization to the Islamic world.

Keywords:

Innovation, thought, culture, Malik IbnNabi, civilization, world of ideas, world of things, world of people.

المؤلف المرسل: بوثلجة فايزة ، الإيميل:faziabouteldja768@gmail.com

أولا. مقدمة:

يمثل التجديد في الفكر الإسلامي سمة بارزة لرسالة الإسلام،والذي نعني به عند مفكري الإسلام أنّه إعادة الأفكار إلى جذورها، وذلك بإزالة الشوائب التي عكرت صفوها وهو ما ينطبق على أهم تيارات التجديد في الفكر الإسلامي التي عملت على تطهير الإسلام، ممّا لحق به من شوائب. وقد بدأت بوادر هذا الاتجاه مع بداية القرن التاسع عشر، الذي يعد عصر التقدم العلمي والتقني في الغرب،وعصر التخلف والإنحطاط والفساد والإستعمار في الشرق، وقد انتهى علماء هذا التيار إلى الإتّفاق على أنّ تقهقر العرب والمسلمين يعود إلى أنّهم هجروا تعاليم الدّين الإسلامي الصحيحة فاندهشوا بالحضارة الغربية فإرتموا في أحضانها.وهكذا أصبحت مشكلة العرب والمسلمين في القرن التاسع عشر والتي شكلت قضية التجديد الأساسية هي رد الإعتبار للدّين وللتراث، حتى تعود للمسلمين حريتهم واسترجاع مجدهم الضائع،وقد برز الفيلسوف الجزائري"مالك بن نبي" (1905-1973) ضمن نخبة من العلماء والمفكّرين المسلمين المعاصرين(الى جانب محمد إقبال)1،الذين شعروا منذ البداية جدّية التحديات الآتية من الغرب ونموذجه الحضاري الخطير، وانكّبوا على معايشتها وإدراكها من أجل استيعابها لبلورة موقف واع وبناء، وأمام هذا الوضع المتأزم برز سؤال في غاية الأهميةوهو: لماذا تأخر العرب والمسلمين؟ وهل من وسيلة ناجعة يمكن للمسلمين عن طريقها أن يصبحوا جزء من العالم المتحضّر مع الحفاظ على تراثهم ومبادئهم؟ ما هي أسس التجديد وشروطه عند مالك بن نبي (العالم الإسلامي أنموذجا)؟

،

ثانيا.لمحة عامة عن بوادر التجديد عند المفكّرين المسلمين

وفي هذا الإتجاه يلوح في الأفق مشروع ضخم يتجسّد في بروز مدرسة التجديد الحضاري المعاصر منذ "محمد إقبال" التي عملت على تكوين وتشكيل رؤية شاملة في عرضها لأزمة المسلم، باعتبارها أزمة إنسانية عامة في جوهرها،وممّا يثير العجب- كما يذكر "إقبال"-أن وحدة الشعور الإنساني التي هي مركز الشخصية الإنسانية الإسلامية لم تكن أبدا موضع اهتمام جدي في تاريخ الفكر الإسلامي،بل أن فلاسفة الإسلام استلهموا آراءهم فيها من الفكر اليوناني[2]،وقد اتخذ "محمد إقبال" من القرآن الكريم مرجعا أساسيا ليؤكد أنّ للإنسان مكانة مرموقة تميزه عن باقي المخلوقات، حيث أنّ الإنسان بالرغم من أخطائه إلاّ أنّه أريد أن يكون خليفة الله في أرضه والدليل على ذلك قوله تعالى "

:وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿30﴾"[3].لذلك نجده ينتقد حركة الإصلاح الديني بالخصوص "جمال الدين الأفغاني" بقوله أنّ نشاطه المكثّف لو اقتصرعمله كلّه على الإسلام بوصفه نظاما لعقيدة الإنسان وخلقه ومسلكه في الحياة. لكان العالم الإسلامي أقوى ممّا هو عليه اليوم4،وتبعا لما أولاه الإسلام من تكريم للإنسان وحديث القرآن عن سجود الملائكة لآدم، واستنادا إلى ذلك دعى فيما بعد المفكّر "مالك بن نبي" إلى بناء ثقافة إنسانية مستلهمة ذلك من مبادئ الإسلام السمحة، وقد نلمس جانب التجديد لدى"مالك بن نبي" في كيفية تحليله لأزمة المجتمع الإسلامي الحضارية، حيث أرسى دعائم علم جديد في فلسفة التاريخ وعلم النفس المجتمعات يتحدث فيها عن ظاهرة تخلف الضمير وعدم مواكبته لتقدم العلم،وقد قال عنه الدكتور "جودت سعيد": وكان بذلك أول باحث حاول أن يحدد أبعاد المشكلة على أساس علم النفس

وعلم الاجتماع وسنة التاريخ،"وقد اعتبر "مالك بن نبي" أنّ الخروج من الأزمة ليس بالأمر الصعب ولا هي حالة مستعصية الحل، فقط فإنّنا في أمس الحاجة إلى مفكرين أصحاب النظرات الثاقبة والعميقة الذين يستطيعون أن ينظروا إلى المشكلة في إطارها العام والشامل ويحددوا بدقة منبعها الأصلي.وأن يكشفوا أصل الداء ويشخصوا أغراضه ويحذروا من مخاطره على المدى القريب والبعيد، وقد نفهم من هنا أنّ البديل الإسلامي الذي تتطلع إليه مدرسة التجديد الحضاري لدى "مالك بن نبي"ومفكري الإسلام المعاصرين ليس مجرد شعارات خالية من أيّ مضمون، وإنّما عبارة عن دراسات عميقة ودقيقة. وينبغي التأكيد إذن على أنّ التجديد الحضاري في الفكر الإسلامي المعاصر يتولى مسؤولية في غاية الأهمية يتمثل في انتشال الأمة من وضعها المتأزم إلى الشهود الحضاري.غير أنّ هذا التجديد الحضاري في الفكر الإسلامي المعاصر ليس من شأنه أن يلغي جهود حركات النهضة في العالم الإسلامي، وتبقي عملية التجديد الحضاري انتصارا لقضية الإسلام مصداقا لما ورد فيه،حيث من إجتهد وأصاب فله أجران، ومن إجتهد وأخطأ فله أجر واحد[5].

إنّ الشيء الذي نلاحظه لدى هؤلاء المجددين بالّرّغم من اختلاف الفترة الزمنية التي عاشوا فيها- هو ارتباطهم الوثيق بالتراث الإسلامي ودعوتهم إلى إحيائه وتجديده حيث نجد هذه الفكرة كذلك لدي المفكّر المعاصر "حسن حنفي" الذي تميز مشروعه الحضاري التجديدي بمجموعة من الخصائص، وقد ارتبطت هذه الخصائص بالظروف الفكرية والثقافية التي تبلورت فيها ملامح مشروعه ومعالم فلسفته. وهي ظروف ارتبطت بماضي الأمة فهي أمة تراثية تاريخية، كما ارتبطت بثقافة غربية أوربية اطّلع عليها المفكّر واستفاد منها في دراساته وأبحاثه كما ارتبطت كذلك بواقع أمته المعاصر وتحدياته ومشكلاته ومتطلباته، فجاءت فلسفته وجاء مشروعه يحمل خصائص أملتها

ظروف المرحلة التاريخية المعاصرة الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية، وأفرزتها ثقافة المفكّر الواسعة والمتنوعة حول التراث.

ثالثا-التجديد الحضاري عند مالك بن نبي:

نتناول في هذا المحور صلة التجديد بالحضارة بشكل عام ثم ننتقل إلى تحديد معنى التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي"،فهل هو البناء الحضاري،أم تغيّرات تجري داخل الحضارة ذاتها؟ فإن كان التجديد الحضاري يعني البناء الحضاري، فما هي عناصر ومواد هذا البناء ؟، وإذا كان التجديد الحضاري تغيرات تطرأ على الحضارة ،فما هي عوامل ومظاهر هذه التغيّرات وما هي نتائجها؟، أهي الاستمرار والدوام والقوة أم هي الانهيار والأفول؟ لكن قبل الإجابة عن هذه الأسئلة علينا أن نضبط بعض المفاهيم الأساسية والتي بواسطتها نصل إلى إيجاد حل لمختلف إشكاليتنا.

1. ضبط المصطلحات:

التجديد في أصله اللُّغوي: مأخوذ من جدَّد الشيءَ، وتجدَّد الشيءُ، إذا صيَّره جديداً أو صار جديداً. ومن معاني التجديد في أصل اللُّغة: التعظيم والإجلال

التجديد بمعنى الاصطلاحي:يظهر أكثر بتعريف" أبي الأعلى المودودي ". رحمه الله إذ يرى أنَّ المجدِّد هو: "كل من أحيا معالم الدِّين بعد طمسها، وجدَّد حبله بعد انتقاضه،فالتجديد يكون حيث يكون الجديد، وعكسه الجمود ،والخمول ،والثبات ، فهو يمثل فاعلية إنسانية مصدرها الفرد والمجتمع يرتبط بالإنسان وبما يملكه من قدرات وطاقات لأنّه متصل بالجانب النّفسي والذّهني عنده (الإنسان)، كما يتصل بحياته الاجتماعية وسائر مكوناتها، فالتجديد يتصل بالحضارة،لأنّه إذا كانت الحضارة هي نتاج تفاعل النشاط الإنساني مع سائر القوانين أو السنن الكونية في الفرد والمجتمع والطبيعة لأجل تطوير حياة الإنسان المعرفية والروحية والمادية في

حياته الواقعية، فالتجديد الحضاري شرط ضروري لعملية البناء الحضاري وسابق عليها. فالحضارة هي كذلك تجديد ولا حضارة في غياب التجديد، فالتجديد الحضاري يمثل كما رأينا شرطا ضروريا لوجود الحضارة ،فالتجديد هو عملية تغيير يجريها الإنسان على الأشياء فينشئ بها الجديد وينتجه، أو يبدّل شيئا ما من حالة إلى أخرى، فيصبح التغيّر ضروري للتجديد، يحدثه ويشرف عليه ويظهر من خلاله[6]كما يرتبط مفهوم التجديد بمفهوم التطورلأنّ معنى التطور لدى الفلاسفة تعني النمو أو التبدل وبهذا فإنّ التطور يتضمن التجديد ، والتجديد يتضمن التطور ولا سبيل للفصل بينهما.كما يعتبر الإبداع شرطا لعملية التجديد لأنّه يمثل إنشاء شيء لم يكن موجودا[7].

إنّ التجديد الحضاري يمثل فعالية بشرية وهو قدرة الإنسان على الإبداع بشقيه: الاختراع والاكتشاف، لأنّ استقراء التاريخ يبين لنا أنّه لا يوجد تاريخ لحضارة ما بدون اختراع أو مخترعين، وأيّ مجتمع يخلو من المبدعين في الجانب الفكري والجانب الاجتماعي والمادي، فهو مجتمع يخلو من الحضارة وليس فيه تجديد حضاري، وأيّ مجتمع فيه إبداع وتحضّر فيه التغيّر ،والتطوّر ،والتقدّم،والتحوّل،وهي مفاهيم ترادف مفهوم التجديد الحضاري وتعبر عنه وتدل عليه. إذا كان التجديد الحضاري مفهوما مركبا من أمرين هما التجديد والحضارة،فالتجديد كما سبق وأن عرفناه هو إنتاج الأشياء الجديدة المعنوية والمادية، وبهذا فهو تطوير للأفكار وللعمل ولوسائل العمل، ويدخل هذا التجديد في إطار إستراتيجية البناء الحضاري الذي تمثله الحضارة كظاهرة بشرية تاريخية اجتماعية للفرد، وإذا كانت الحضارة هي انتقال الإنسان من حياة بسيطة بدائية إلى حياة مدنية مزدهرة تتوفر فيها شروط الحياة الإنسانية الراقية بما يكفل لكل فرد مطالبه وحاجاته في كل مرحلة من مراحل حياته، فإنّ التجديد الحضاري هو شرط ضروري سابق

،

على كل حضارة، ومن جهة أخرى فإنّ التجديد في الحضارة بعد قيامها أمر واجب لضمان قوة الحضارة واستمرارها، فالعلاقة بين التجديد والحضارة هي علاقة العلّة بالمعلول، والشرط بالمشروط،والنتيجة بالسبب، إذ أنّه لا حضارة في غياب التجديد .والتجديد الحضاري عند "مالك بن نبي" يشكل جوهر البناء الحضاري ولبّه لأنّه عملية تنفيذ الخطة المحددة في إستراتيجية البناء الحضاري[8].

ولا شكّ أنّ تكوين الحضارة ونموّها وقيامها لدى مجتمع ما وفي مرحلة تاريخية من مراحله يتطلب تغييرا في الأنفس والأفكار والأشياء،وهذا لايأتي إلا بمجهودات تصدر عن إنسان يعيش التغيّر في نفسيته وذهنيته ويغير من أخلاقه وسلوكه كما يغير محيطه الاجتماعي والطبيعي،هذا التغيّير في إستراتيجية البناء الحضاري والنهضة الحضارية هو ما يعرف بالتجديد الحضاري، فتجديد المسلم لإيمانه باستمراره في العبادة ومراجعة العقيدة والتمسك بتعاليم الكتاب والسنة والاقتداء بالصحابة والامتثال لأوامر ونواهي الشرع وحركة الإصلاح التي بادر بها عدد من المفكّرين في العالم الإسلامي أمثال "جمال الدين الأفغاني"،و"محمد عبده"،و"عبد الحميد بن باديس"،وغيره هي من التجديد الحضاري، والثورة الجزائرية هي من التجديد الحضاري، وكلّ فعل فيه جديد يستهدف الوصول إلى التحضّر هو تجديد حضاري ضروري ومطلوب في كل عصر حيث أنّ كلّ نهضة وكلّ حضارة، وكلّ صحوة حضارية تشترط التجديد الحضاري باعتباره تغيّيرا في الإنسان والمجتمع، هذا يحدث الحضارة ويصنعها كما يعمل على تنميتها وتطويرها، فهو شرط البناء الحضاري وشرط تطور الحضارة.

فالحضارة الإسلامية قامت بعدما غيّر المسلم نفسه وعقليته ومحيط المجتمع الجاهلي، وزوده بالطاقة الروحية والرغبة في البناء فدفعته تلك الطاقة الروحية إلى الجهاد والإعمار، وإلى العمل والبحث فتكونت العلوم

والفنون والصنائع، وتطور الحضارة الإسلامية أساسه التغيّيرات والتجديدات التي أدخلها المسلمون على حياتهم بصورة تدريجية في المجالات الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية نتيجة لإحتكاكهم بثقافات وديانات الشعوب والأمم الأخرى. فالتجديد الحضاري لا يكون وراء تكوين حضارة فحسب، بل يكون كذلك شرط تطورها، وما دام التجديد هو إنشاء شيء جديد في الجانب المادي أو المعنوي، فإنّ تطور الحضارة يعني تجديد جانبها المادي والمعنوي باستمرار، فمن العين المجرّدة إلى المجهر الضوئي"الميكروسكوب" إلى المجهر الإلكتروني،وهكذا مع تطور وسائل النقل والإتصال. ومن طريقة الإلقاء والحفظ في التعليم إلى طريقة التعليم بالحوار وبالأهداف إلى طريقة التعليم بالكفاءات. كل هذا يؤكد الدور الذي تلعبه ظاهرة التجديد الحضاري ليس في تكوين الحضارة فحسب، بل في تنمية مجالاتها وتطوير منتجاتها ومنجزاتها. وتطور العلوم بفضل تطور مناهج ووسائل ونتائج البحوث العلمية في الحضارة المعاصرة يدل على عدم استغناء أي مجتمع يريد الحضارة عن عوامل ومبررات التجديد الحضاري[9]،وقد شكلّت أفكار مالك بن نبي"ومنهجه وخطته في الإصلاح والتجديد نظرية فلسفية جديدة، قائمة بذاتها، تحدد بدقة وبموضوعية أسباب التخلف وسبل القضاء عليه، وشروط الحضارة وأسباب انهيارها،وفي نظره كل الحضارات والمدنيات التي شهدها تاريخ الإنسانية لا تخرج عن خط نظريته القائمة على أساس الفكرة الدينية[10].

ولقد ذكر فيلسوف الحضارة "مالك بن نبي" الفيلسوف الشاعر والمفكّر المصلح "محمد إقبال" في كتابه "شروط النهضة "، وأشاد بمحاولته الفكرية الإصلاحية الفذّة، التي خرجت عن المألوف، لما لها من دقة وعمق في النظر وقوة في التشخيص[11] ممّا يجعلنا نكتشف الارتباط القوي والصلة المتينة بين نظرية الإصلاح عند "محمد إقبال "وبين نظرية الإصلاح عند "مالك بن نبي"،

تجعلنا نعتبر أنّ فلسفة "إقبال" تمثل المرجعية الفكرية، والأرضية الفلسفية الميتافيزيقية، والإطار النظري لفكرة الإصلاح والتجديد عند"مالك بن نبي"،والتي بدورها تعتبر المحاولة الفكرية لفكرة وفلسفة "إقبال" في الإصلاح والتجديد، لأن ما لاحظناه لدى فلسفة "محمد إقبال" و"مالك بن نبي" أنّهما من أصول واحدة، وانتماء ديني وتاريخي واحد، ومن طبيعة واحدة، وجدت من أجل تحقيق أهداف وغايات واحدة. فهما يمثلان معا فكرا فلسفيا، كانت الساحة الفكرية والثقافية والاجتماعية في أمس الحاجة إليه، وكل من الفلسفتين تمثل نظرية ذات أصول وأبعاد فلسفية، علمية، فكرية، ودينية، وهي محاولة لم يعتبرها أصحابها خاصة بالعالم الإسلامي أو بالعالم المتخلف، لأنّها لا تقتصر على زمن معين،أو وطن بعينه، أو شعب بمفرده بل هي نظرية عامة موجهة للإنسانية جمعاء،ممّا جعل النظرتين ذات طابع عام وشامل، لا تقتصران على فرد ما،أو جماعة ما،أو زمن ما.

رابعاً-خصائص مشروع التجديد الحضاري عند مالك بن نبي:

1 -التراثية:اعتمد صاحب مشروع 'التراث والتجديد" على إحياء التراث، وكانت رسالته الأولى تحمل بوادر ومحاولة قراءة أصول الفقه وإعادة بنائه وفق ما يقتضيه العصر ، بأدوات ومنهجية معاصرة فلا سبيل في نظره إلى التخلص من الأزمة التي يعيشها العالم العربي والإسلامي في غياب قراءة التراث وإعادة بنائه، لأنّ شعوب العالم العربي المعاصر تعيش على التراث وهو مخزون نفسي يؤثر فيهم شعوريا ولا شعوريا، وأيّة محاولة لتجاوز الأزمة خارج التراث ومن دونه هي ضرب من الوهم ونهايتها الفشل، والأمر يختلف عمّا حدث في الغرب الأوربي، حيث قامت النهضة الأوربية الحديثة بعدما تعرضت كل جوانب التراث للنقد والهدم، لأنّ الموروث التاريخي الغربي آنذاك ارتبط بجوانب مظلمة فكرياً ،وسياسياً ،واجتماعياً ،ودينياً.أمّا التراث عندنا

فيمثل جوانب مشرقة في الثقافة العربية الإسلامية وهو صورة ومادة الحضارة الإسلامية الزاهية التي بلغت قوة أوجها وعزّتها.

2-التجديدية: يمثل التجديد الأداة التي بدونها لا تحصل عملية التغيّيرسواء من الناحية الفكرية أو الاجتماعية أو الحضارية وحتى التاريخية.لأنّ الأزمة أزمة تغيير الأوضاع الاجتماعية وقبلها فكرية وثقافية، وأزمة بحث علمي ومشكلة التغيّير تبدأ من تغيير الذهنيات،وتغيير العادات والتقاليد ،وتغيير مناهج البحث والدراسة، فالمشكلة هي مشكلة تجديد، لأنّه لا سبيل لحل أزمة التغيّير الإجتماعي وأزمة المناهج في الدراسات الإسلامية إلا بواسطة التجديد، تجديد اللغة ومنطقها، وتجديد مستويات التحليل وتجديد البيئة الثقافية، ويعود سبب فشلاً لمحاولات المتكررة لحل مشكلة التراث والتجديد إلى ارتباط تلك المحاولات بحلول مستوردة لأزمة خاصة لها ظروفها وأوضاعها تختلف عن الأوضاع والظروف التي وجدت فيها تلك الحلول، أو الإكتفاء بحلول ذاتية موروثة من القديم،حيث لم تعد تلك الحلول تناسب مشكلات العصر الذي تختلف ظروفه عن الظروف التي نشأ فيها التراث. فالحاجة ملحّة إلى التجديد وهو مشروع "التراث والتجديد لأنّه هو القادر على إفادة الواقع بنظريته في التفسير ، فالتراث هو نظرية الواقع، والتجديد هو إعادة فهم التراث حتى يمكن رؤية الواقع ومكوناته والتراث والتجديد عند "حسن حنفي" يؤسسان معاً علماً جديداً وهو وصف للحاضر وكأنّه ماض يتحرك، ووصف للماضي على أنّه حاضر.

خامساً-شروط التجديد الحضاري عند مالك بن نبي:

إنّ المشكلة الأساسية عند فكر "مالك بن نبي" -كما رأيناه- هي مشكلة الحضارة، وشروط حل هذه المشكلة والإلمام بشروط النهضة والتحضّر هو الإرتقاء بالفكر إلى درجة الوقائع الإنسانية ذات الطابع العالمي، ولا يمكن لشعب ما أن يفهم أو يحل مشكلته مالم يتعمق في فهم العوامل التي تبني

الحضارة أو تهدمها،وأنّ حضارة أي شعب تمثل حلقة في سلسلة الحضارات تجسد جهود وأعمال الشعوب باعتبارها أجيالا متعاقبة متصلة فيما بينها في سبيل الرقي والتقدم، فما هي شروط هذا الرقي وهذا التقدم؟

إنّ هذا السؤال يرتبط في أصله بالتجديد الحضاري،لأنّ أيّ تقدم أو رقي لأيّ شعب لا يقع خارج التجديد الحضاري، حيث تتجاوز مهمته (التجديد الحضاري) من إصلاح الأوضاع إلى تشخّص الفساد وأسبابه وتحديد المبادئ والغايات والسبل والوسائل المناسبة والمتاحة لإزالة الفساد وتجاوزه، ومن مهامه أيضا نجده يسعى إلى إحياء القديم وبعثه وتكييفه مع المستجدات، فالتجديد الحضاري يمثل جوهر الحضارة ومحركها وجوهر التاريخ ومحركه لأنّه ضروري لميلاد الحضارة،وضروري لتطويرها عبر التاريخ، وأنّ شروط هذه العملية (عملية التجديد) مرتبطة بشروط البناء الحضاري والتي حدّدها "مالك بن نبي"في كتابه شروط النهضة وهي:

1-الشروط النفسية: نستطيع أن نتعرف على شروط التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي" ،انطلاقا من قول الله سبحانه وتعالى: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿70﴾[12]، يتّضح من الآية الكريمة أنّ الله خلق الإنسان وخصّه وحده بالتكريم والتفضيل، فوهبه العقل والقدرة على الإبداع والتجديد، أي القدرة على بناء الحضارة والتحضّر، حيث أنّ النهضة تحتاج في حياة أيّ أمة، إلى شروط نفسية تكون في البداية ذات طابع ذاتي خاص، ثم تتبلوّر وتشق طريقها داخل المجتمع فتصبح ذات طابع اجتماعي. وبعض الشروط التاريخية يفرضها الإجتماع البشري وشبه العلاقات الاجتماعية والحياة داخل المجتمع،فمثلا دعوة "الرسول صلى الله عليه وسلم" إلى الإسلام بدأت من بيته ثمّ انتشرت في جميع بقاع الكرة الأرضية، ودعوة "كارل ماركس" إلى الاشتراكية بدأت كفكرة نادى بها صاحبها ثم صارت

عقيـدة يـؤمن بهـا أصحابها ويـدعون إليهـا،ومن جهـة أخـرى نجـد الحيـاة في المجتمـع تقتضـي النظـام وأشـكال أخـرى مـن العلاقـات والأنشـطة مثـل المعاهـدات والاتفاقيـات وتقسـيم العمـل والتعـاون وغيـره، وهـذا يعني أنّ التجديـد الحضـاري في أي نهضـة تاريخيـة يشـترط جملـة مـن العوامـل الاجتماعية بعضها نابع من أفراد المجتمع،وبعضها صادر عن المجتمع ذاته، وفي الحـالتين معـا الحضـارة مشـروطة بعوامـل اجتماعيـة وتحقـق غايـات اجتماعية، كما تلازم المجتمع بكافة معطياته.

إنّ الشـروط النفسـية تكـون وراء أي حضـارة كمـا تلازمهـا وهي تنجـز وتصـنع منتجاتهـا، وتمثـل هـذه الشـروط كـذلك غايـات وأهـداف الحركـة التاريخيـة لأنّ إسـتراتيجية التجديـد والبنـاء الحضـاريين تقـوم على التخطيـط وربـط المبـادئ والأفكار بالأهـداف والغايـات. هـذه المبـادئ والغايـات نابعـة من الفرد الطموح إلى الحضارة، كما يتمتع بالشروط الأولية التي تضعه في أعلى درجة وفي أعلى هرم مقارنة ببقية المخلوقات الأخرى من خلال امتلاكه لكافة عوامل وعناصر التحضّر، فهـو ينشئ الحضـارة بالعقـل والقـدرة على الإبـداع وله القدرة في أن يتأثر ويؤثر في غيره من خلال استعماله لفكره ولغته التي هي وسـيلة التواصـل.ومـن هنـا يتجلى البعـد الإنسـاني في الحضـارة والتجديـد الحضـــاري ، فالطبيعـــة البشـــرية ومـــا تتـــوفر عليـــه مـــن دوافـــع فيزيائية،ونفسـية،وعقلية، وأخلاقيـة، واجتماعيـة، هـذه الـدوافع تتحـول إلى فاعليـات قويـة تخـط طريقهـا نحـو التجديـد الحضـاري، فتصـبح الحضـارة ظاهرة إنسانية تكرس رسالة الإنسان في هذا الوجود كما تميزه عن غيره من المخلوقات التي لم تشهد الحضارة إطلاقا، وهي من خلال عناصرها وشروطها ومنتجاتهـا تجسـد القـيم الإنسـانية ،حيـث أنّ للفـرد ذات زاخـرة بـالميول والرغبـات والأهـواء والعواطـف،التي تبـدأ بالطـابع الفـردي الخـاص ثـم تشـق طريقها داخل المجتمع، وما رغبة الإنسان في تغيير حياته ونمط عيشه نحو

الأحسن إلا ضرب من الرغبة التي تحرك الإرادة فتتحرك سائر القوى الذهنية والنفسية ومعها القوى العضوية فيحصل التجديد، حتى أنّ البعض يرى بأنّ العنصر الانفعالي هو المحرك الأساسي لعملية الإبداع، فالإنسان في نظره يرغب في شق طريقه نحو النهضة والحضارة،وهو ما يعرف عند "مالك بن نبي " (بالعدة الدائمة)[13]، حيث تتكون هذه الثروة الإنسانية من الإنسان والتراب والوقت، لأنّ الحضارة تتجسد في ذلك الرجل الذي تحرك في التراب الذي يمده بقوته مستغلا الوقت اللازم للوصول إلى أهدافه.والعدة الدائمة تمثل ميراث الإنسان والتاريخ والمجتمعات، وهي ليست حكرا على أحد ولا هي من منجزات أو منتجات الحضارة، بل تتكون وتتركب منها ولهذا نجد الإنسان لا يمكن له أن يفرط في العناصر الثلاثة التي تمثل رأسماله الأول لتحقيق وجوده الاجتماعي والمدني، وإن كان قادرا على الاستغناء عن منتجات الحضارة ومنجزاتها مؤقتا، فالشعوب التي شاركت وانهزمت في الحرب العالمية الثانية لم تقدر خسارتها بالذهب،بل بساعات العمل،أي بمقدار من الوقت وبمنتوجات التراب، تلك القيم الخالدة التي نجدها كلّما وجب علينا العودة إلى بساطة الأشياء،أي كلما تحرك رجل الفطرة وتحركت معه حضارة في التاريخ،لأنّ الحضارة بسائر منجزاتها ومنتجاتها الفكرية والمادية ترجع في أصلها إلى(العدة الدائمة)[14].

وأيّ منتوج حضاري هو حصيلة تأليف بين العناصر الثلاثة، فالمصباح الذي نستعمله في الإنارة هو منتوج حضاري أنجزته جملة من الأفكار تطورت مع الزمن عند الإنسان الذي يمثل العنصر الأول الذي يدخل في إطار التدخل البشري الفكري واليدوي، ابتداء من أول إنسان فكر في المصباح وصنعه وصولا إلى "توماس إديسون" مخترع المصباح الكهربائي والتراب فهو العنصر الثاني، فيمثل المادة الأولية التي تقوم بمهمتي الوصل أو العزل،أما الوقت فهو الذي تجري فيه عملية الانجاز وبناء الناتج الحضاري،لأنّه يمثل الزمن الذي

تجري فيه الأحداث الإنسانية ويتحرك فيه المجتمع داخل التاريخ .وتتكون في مجاله الحضارة[15].

2-الفكرة الدينية: إنّ الفرد في حاجة إلى الجماعة، فهو في أمس الحاجة إلى النظام ليحقق وجوده واستمراره،وهذا الاجتماع يظهر في صورة مجتمع يبقي في حاجة كبيرة إلى عقيدة موحدة لكي تنشئ العلاقات والقيم الأخلاقية، وتزرع في أفراد المجتمع الشعور المشترك بحاجة الأفراد إلى بعضهم البعض،حيث تعتبر العقيدة الموحدة هي الدافع إلى النهوض بالمجتمع، فيبدأ التاريخ وتنطلق الحضارة، فالتاريخ يصنعه الإنسان والحضارة إنتاج إنساني في التاريخ وهذا الصنع وهذا الإنتاج من فعل الإنسان بدافع من الفكرة الدينية، فالعقيدة تغذي الروح،لأنّ الحضارة في طورها الأول تشترط عوامل روحية دينية تكون وراء كل تجديد حضاري،وهو ما نجده في الحضارة الإسلامية،حيث بواسطة تعاليم القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم بزغت شمس الحضارة وسطع نور النهضة في صحراء العرب بعدما تحكمت فيهم تقاليد وأحكام وأفعال الجاهلية مثل:وأد البنات،والزّنا، والعصبية.

وبناءا على هذا فإنّ الحضارة عند "مالك بن نبي" تصنعها الفكرة الدينية والمبدأ الأخلاقي من خلال التأليف والتوحيد بين عناصرها الثلاثة: الإنسان التراب والوقت،حيث تمثل الفكرة الدينية المركّب في كل تجديد حضاري أو نهضة حضارية[16].

3 -التغيّير: يعتبر التغيّير عند "مالك بن نبي" جوهر ولب عملية التجديد الحضاري وهو شرط لازم لكل تطور أو بناء أو إصلاح أو بعث حضاري ،فكما يكون التغيّير شرط البناء الحضاري فقد يشرف على هدم هذا البناء وإزالته، و"مالك بن نبي" يضع التغيّير كفاعلية إنسانية،فردية، واجتماعية، وأممية وراء كل نهضة، ومبدأ التغيّير عنده يمثل قاعدة أساسية أكّد عليها القران الكريم في قوله تعالى:لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ

،

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿11﴾[17]، وقد تناول "مالك بن نبي" مبدأ التغيّر كقاعدة عامة في كل حركة تاريخية حضارية، فهو يلازم كل عملية من شأنها أن تجدد أو تطور،أو تصنع التقدم والإبداع في مختلف مجالات حياة الإنسان الفكرية،والاجتماعية، والمادية، كما تناوله كمشكلة مطروحة أمام العالم الإسلامي الذي يعاني الجمود والركود والتخلّف. وحل هذه المشكلة مرهون بتمسك المسلم بالقاعدة المقررة في الآية السابقة، كما أنّ عملية إنتاج الأفكار والقيم والأشياء بفعل التجديد الحضاري تكون بدافع الفكرة الدينية، هذه العملية تتضمن تغيّرا يحدث في روح الفرد،وروح المجتمع،وروح الأمة ولا يحصل التغيّر في محيط الفرد ما لم يحصل في نفسه أولا، وتغيير النفس هو الأساس لكل تغيير هادف رشيد، فالاستعمار لم يستطيع فعل شيء مادام الفرد يملك نفسا تحررت من المذلة بفعل تغيير نفسي مكّنها من القيام بوظيفتها الاجتماعية ولا يتغير شيء في الخارج إن لم يغير الفرد نفسه[18].

فالتغيّر ضرورة لا بدّ منها لكي يحقق الإنسان وجوده في التاريخ ويقوم بوظيفته الاجتماعية التاريخية،والتغيّر يبدأ من داخل نفس الفرد ثم يشق طريقه نحو الخارج فالفرد لا يمكنه أن يغيّر شيئا في الخارج فإن لم يغيّر شيئا في نفسه ويظل التغيّر فاعلية إنسانية ضرورية للتجديد الحضاري عند الإنسان الذي يتحرك في التاريخ ليحقق وجوده،هذا الإنسان الذي صارت إرادته قوية ورغبته كبيرة في الارتقاء الحضاري بعدما هجر الجمود والتخلّف والانحطاط وبذلك يكون قد شق طريقه نحو البعث والإحياء وإعادة البناء.

4-البناء لا التكديس: اعتمد"مالك بن نبي" في تحديد شروط النهضة والتجديد على شواهد تاريخية،حيث أرجع كل مشكلات الإنسان جميعا إلى مشكلة الحضارة لأنّ القضية ليست قضية فقر،وإنّما هو أمر يتعلق بأساس

مشكلاتنا، فعلينا أن نفكر في جذور المشكلات وندرك أنّ القضية قضية حضارة،وما الفقر والغنى والجهل والمرض إلاّ أعراض لتلك المشكلات الأساسية[19]، فالحضارة عند "مالك بن نبي" تقتضي تجنّب الإتكال على الغير وتحاشي أسلوب الاستيراد والتكديس فلا يتحضّر شعب إلاّإذا امتلك وعيا حضاريا يميز بين البناء والتكديس، وبين الإنتاج والاسترداد، فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس،لأن عملية إنشاء الحضارة لا تتم بشراء كل منتجاتها وتكديسها فذلك مستحيل من حيث الكم والكيف معا،لأنّ الحضارة لا تبيع كل منتجاتها مرة واحدة، فلها روح وأفكار وأذواق خاصة بها تبقي لها ،لأنّنا عندما نشتري منتجاتها –الحضارة- فإنّها تمنحنا هيكلها وجسدها لا روحها وتعجز الأمة المستوردة عن شراء كل منتوجات الحضارة ودفع ثمنها، لأنّها لا تملك رأسمال ذلك فالاستحالة هنا تاريخية واجتماعية، واقتصادية، والتسليم بالإمكان يؤدي إلى حضارة الشيئية[20].في حين أنّ الحضارة الحقّة هي عملية بناء، تتطلب أسسا فكرية ومادية في عالم الأشخاص والأشياء، وفي إطار منهج يحدد المبادئ والغايات، فلكي نقيم بناء حضاريا لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات، وإنّما أن نستغل شروط البناء استغلالا رشيدا يسمح بإنشاء حضارة فذلك يتطلب توجيها رشيدا لعناصر وشروط وإمكانات وطاقات الفرد والمجتمع[21].

5-التوجيه:يعتبر التوجيه شرطا ضروريا للنهضة والتجديد الحضاري انطلاقا من أنّ النهضة مشروطة بالتغيّرالذي يقع على مستوى الفرد والمجتمع،هذا التغيّر الذي يضمن تحرك التاريخ بفعل دوافع نفسية واجتماعية، ولا يؤدي المجتمع رسالته إلاّ بوجود ترابط عضوي بين مكونات شبكة العلاقات الاجتماعية، طبقا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاثة:

أ/تأثير عالم الأشخاص.

ب/تأثير عالم الأفكار.

ج/تأثير عالم الأشياء.

حيث أنّ هذه العوالم لا تعمل متفرقة،بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته من "عالم الأفكار" يتم تنفيذها بوسائل من "عالم الأشياء"،من أجل غاية يحدّدها "عالم الأشخاص"[22].فالتغيّر التاريخي من إنتاج العوالم الثلاثة ووحدة التغيّرالتاريخي ضرورية، لأنّ ذلك في نظر "مالك بن نبي" يجسّد الحضارة في الواقع وهذا الشرط يستلزم كنتيجة منطقية وجود "عالم رابع" وهو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية،أو ما يطلق عليه "بشبكة العلاقات الاجتماعية" فالمشكلة بأكملها مشكلة فرد يصنع التاريخ من خلال تأثيره في المجتمع بفكره وعمله وماله والتوجيه في هذه النواحي الثلاث الفكر والثقافة،العمل ورأس المال[23].

إنّ توجيه الإنسان في النواحي الثلاث لغرض التجديد الحضاري يرتبط بتوجيه التراب والوقت،بل يشترط ذلك ليكون الفعل الحضاري متكاملا،فالتراب عنصر من عناصر تكوين الحضارة وقيمته الاجتماعية تكون على قدر مالكيه من التقدم أو التخلف والإنحطاط، أمّا الزمن فهو العامل الثالث من عوامل الحضارة الذي يمثل ثروة في مجالات الحياة، وهو جوهر لا يقدر بثمن ولا يتحدّد معنى الوجود الإنساني إلا بتحديد فكرة الوقت ووعي قيمته،والتربية هي الأداة الوحيدة التي تغرس في أفراد المجتمع قيمة الوقت وتثبتها فيهم،فإذا إستغلينا الوقت هكذا فسترتفع كمية حصادنا العقلي، واليدوي،والروحي،وهذه هي الحضارة[24].

إنّ التجديد الذي دعا إليه "مالك بن نبي" له طابعه الخاص لأنّه حتى وإن كان يلتقي مع المحاولة الإصلاحية عند مفكري الإسلام "كمحمد إقبال" غير أنّ فكره انطلق من واقع العالم الإسلامي ومن تخلفه ومشاكله اليومية،في الدين،والاجتماع،والثقافة،والسياسة،والأخلاق وغيرها،وهي مشكلات حضارة في الأصل والجوهر. وقد قام بتحليل واقعه وتحليل واقع

الأمم المتحضرة في عصره، وانتقدهما بطريقة علمية، كما حلّل وانتقد الحياة الفكرية في العالم الإسلامي المتخلف، وحتى أوربا المتحضرة. وركز على إستيعاب ونقد الفكر الإصلاحي الحديثوالمعاصر في العالم الإسلامي، وفلسفة التاريخ في أوربا من خلال رؤية "شبنجلر"، ومنظور "كيسرلنج"، ونظرية "توينبي" و"فيكو" وغيرهم. وقد انبثقت عن هذه الدراسة النقدية التي قام بها مالك بن نبي سواء في الحضارة، أوفي التجديد الحضاري، التأكيد على البعد الروحي والديني للحضارة، لكون الفكرة الدينية تؤلف بين عناصرها، وتوحد الانسجام بين شروطها ولوازمها، كما تضمن لها البقاء والاستمرار والازدهار بالإضافة إلى فعل التغيّير الذي يحققه هذا البعد (الروحي) في داخل نفس الإنسان، وفي أعماق ذاته، ثم يجرى في المحيط الذي يعيش فيه، وهي سنة سنّها الله لتسير عليها الحياة، ويقررها القرآن في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿11﴾[25].

والتغيّير يسمح للإنسان بأن ينتج حضارته بنفسه، بعيدا عن الاستيراد والتبعية والمديونية الحضارية، فالحضارة الحقّة هي التي تلد منتجاتها، وليس العكس. لذا يجب التمييز بين البناء والتكديس، والأخذ بالبناء لا التكديس، ويبقى التوجيه شرطا ضروريا لكل صحوة أو نهضة حضارية، توجيه الإنسان، وتوجيه الأفكار وتوجيه الأشياء.لأن فعل التجديد الحضاري عبارة عن تغير يجرى على الإنسان في عالمه النفسي الداخلي، ثم عالمه الخارجي، أساسه روحي، يظهر في الحياة بجميع مجالاتها. ويتجلى في النهاية في صورة تقدم وازدهار روحي، وتقدم وازدهار مادي، ومتى حصل التوازن والانسجام والتكامل بين الجانب الروحي والجانب المادي بلغ الإنسان قمة التحضر التي هي غاية التاريخ والمجتمع ومبتغى الإنسان فالتجديد في الحضارة من حيث تكوينها أو تطورها أو استمرارها،أو إصلاح أوضاعها يقتضي عدة دائمة وتغييرا

يبدأ من داخل الفرد ثم يتجه إلى الخارج،فيحصل البناء من خلال توجيه وتخطيط يربط المبدأ بالغاية،ويستغل جميع الوسائل والمناهج لخدمة الإنسان ولتحقيق أغراضه القريبة والبعيدة[26].

سادساً-أبعاد التجديد الحضاري عند مالك بن نبي:

شهدت الإنسانية عبر تاريخها الطويل عدة حضارات.واستقراء هذه الحضارات يثبت أنّ قوة الحضارة مشروط بالانسجام بين جهد الإنسان وغاياته العليا،أمّا ضعف الحضارة وانحلالها سببه تحلل الإنسان في فكره وسلوكه، فمن خلال التاريخ يمكن للإنسان أن يحدد مكانته في الدورة التاريخية،بل في الحياة ككل ويدرك أسباب التخلف والانحطاط وعوامل النمو والنهضة، فيصبح التاريخ بهذه الأهمية أداة تقويم للذات، فهو يمد الإنسان بالمعايير اللازمة للوصول إلى الحقيقة وبذلك فإنّ عملية التجديد الحضاري تبدأ عندما يتحرك الإنسان ليدخل إلى التاريخ ويؤثر عليه ممّا يثبت لنا أن للتجديد الحضاري أبعادا تاريخية واجتماعية قد حققها.

1-البعد التاريخي والاجتماعي:

يمثل التجديد الحضاري حركة إنسانية تنطلق من نقطة ما لتصل إلى أخرى داخل مجال التاريخ، لأنّه هو الذي يسجل هذه الحركة منذ انطلاقها ويسجل مراحلها وكل ما يصيبها وما يطرأ عليها من تغيرات، وإنّ أيّة حضارة من الحضارات سواء ماضية أو حاضرة أو تكون في المستقبل تتكون بفعل التجديد الحضاري.والتاريخ هو الذي يسجل هذه المرحلة من النهضة الحضارية من البداية إلى النهاية، لأنّ ميلاد الحضارة لا يكون بالصدفة أومن العدم بل من معطيات تاريخية سابقة، فالتاريخ يمثل الإنسان والحضارة والتجديد الحضاري، وتمثل المعطيات التاريخية لأية نهضة حضارية شروطا

وأسبابا تنتج النهضة والتجديد والحضارة، هذه الحضارة يلعب في بنائها الفرد في صلته بمجتمعه وفي علاقته بالتاريخ دورا رئيسيا. لأنّ أيّ تجديد في الحضارة هو من صنع أسباب نفسية وعوامل زمنية تاريخية وكذلك إجتماعية[27]. كما أنّ عملية التجديد تحدّدها حاجة الفرد إلى الاجتماع الإنساني، فهو لا يستطيع أن يوفر لنفسه كل ما يحتاج إليه من ضروريات وكماليات، ولا يقدر على بناء الحضارة بمفرده، وبالمقابل فالاجتماع البشري في حاجة إلى الفرد لأن الاجتماع ذاته هو اجتماع أفراد يجمعهم حاضر واحد ومصير واحد، فتتوحد الجهود وتتحدّد الغايات والسبل والوسائل وتتّحد لضمان حياة اجتماعية، هذه الحياة الاجتماعية في حاجة إلى علاقات تنظم حياة الأفراد داخل الاجتماع، فيصبح الاجتماع في حاجة إلى النظام فيتشكل المجتمع، والواقع أنّ حركة المجتمع التي تحدث التغير والتطور تمثل حركة التجديد الحضاري في التاريخ، هذه الحركة هي التي تبني المجتمع وتصنع الحضارة وتحدث التطور التاريخي[28].

ومن هنا نستنتج أنّ التجديد الحضاري يشترط المجتمع والمجتمع يشترطها، وانهيار حضارة أيّ مجتمع هو انهيار للخصوصيات التي يتميز بها هذا المجتمع، وأيّاجتماع بشري بدون حضارة يغلب عليه الطابع البدائي ويسوده قانون الغاب وتحكمه الهمجية، فالحضارة هي التي تحمي المجتمع من الهمجية، ويؤيد تاريخ الحضارات ما يذهب إليه "مالك بن نبي"، فالعرب في الجاهلية كانوا بدوا رحلا تسيطر عليهم الوثنية والنعرة القبلية وغيرها من العادات الفاسدة، فإذا بالإسلام يبعث فيهم روح التآلف ويدفعهم إلى التحضر، فكان لهم ما هو معروف من حضارة[29]،ففي مجتمع الحضارة يتوفر مناخ الحرية والحماية للفرد.

فالتجديد الحضاري مرهون بوجود المجتمع لينطلق من داخله فيغيره والمجتمع لا يتطور ولا يحافظ على حياته ولا يشهد الحضارة ولا يعرف

التجديد الحضاري إلا بفعل هذه الحركة. وقد أكّدت معظم الدراسات في تاريخ الحضارات أنّ كل حركة تجديد حضاري تنطلق من داخل المجتمع بتوجيه أخلاقي وضوابط أخلاقية، فالمجتمع في حاجة إلى قوة تماسك لأفراده لممارسة التجديد الحضاري وبناء الحضارة، ويحصل التماسك لدى الفرد بفعل الغريزة،أمّا المجتمع التوّاق إلى الحضارة وإلى الرقي والسمو فإنّه يستعمل الغريزة نفسها، "ولكنّه يهذّبها ويوظّفها بروح خلقي سامي.

2. **البعد الأخلاقي للتجديد الحضاري:**انطلق"مالك بن نبي" من مسلمة مفادها أنّه لا يمكن لأيّ مجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك دون وجود شبكة العلاقات التي تؤلف بين عناصره المختلفة بما فيها النفسية والزمنية. وأنّ كل علاقة هي في جوهرها قيمة ثقافية يمثلها القانون الخلقي والدستور الجمالي الخاص بالمجتمع، فالقانون الخلقي تتضمنه العلاقة الاجتماعية التي هي في جوهرها قيمة ثقافية، بحيث أنّ الغاية من وجود القانون الخلقي هو بناء المجتمع والمحافظة على تماسكه وإدخاله في التاريخ من خلال تمكينه من التجديد الحضاري، وتكوين الحضارة وتحريك التاريخ، وكلّما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه "فقوة التماسك التي أوجدتها العلاقة الاجتماعية المتضمنة للقيم والقوانين الأخلاقية الإسلامية هي التي جعلت المهاجرين والأنصار يصلون إلى درجة التآخي والإيثار، كما أنّ قوة التماسك بين أفراد المجتمع الواحد الناشئة عمّا تفعله القوانين الأخلاقية داخل المجتمعات يقدم صورة جمالية تختلف عن تلك الصورة التي يظهر عليها مجتمعا ممزقا في طريقه إلى الأفول، حيث أنّ الجمال يمثل أحد مكونات المنظومة الثقافية، والثقافة تمثل المحيط الذي يعكس حضارة المجتمع، "والإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال،بل إنّ الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أيّة حضارة".[30] بحيث أنّ الجمال ينبغي أن يشاهد في المجتمع المتحضر في جميع

الأماكن والمجالات، في الشارع والبيت والسينما والمسرح، وقيمة الجمال تكبر في عين "مالك بن نبي" فهو عنده وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجهنا، لكي نحفظ كرامتنا ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بنفس الاحترام.

فالتجديد الحضاري مشروط بجملة من القيّم الأخلاقية والجمالية تشكل عوامل تحرُّك التاريخ وتبني الحضارة، وهذا يتطابق مع ما يدعوا إليه الإسلام فالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بُعث لإتمام مكارم الأخلاق، والله يقول:وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿4﴾[31]، كما اعتنى الإسلام بالبعد الجمالي في حياة الفرد والمجتمع والأمة، ويظهر ذلك بوضوح من خلال التأكيد على طهارة النفس والبدن والمحيط[32]. إنّ النتيجة التي انتهينا إليها بعد تحديد البعد الأخلاقي والبعد الجمالي للتجديد الحضاري والحضارة تؤكد أن وراء البعدين بعد آخر يمثل الأرضية والمرجعية لجميع الأبعاد المختلفة حسب "مالك بن نبي" وهو البعد الروحي الديني، فالعلاقات الاجتماعية المتضمنة للقيم والقوانين الأخلاقية وحتى الجمالية هي من صنع علاقة روحية بين الله والإنسان، وهي التي تكون وراء ميلاد أيّ مجتمع يدخل التاريخ ويصنع التجديد الحضاري ويبني الحضارة. لأنّ الفكرة الدينية تشترط سلوكا لدى الإنسان به يكون قادرا على أداء الرسالة، ودوره لا يقف عند بعث التجديد الحضاري ودفع معتنقيها إلى الحركة في التاريخ وتشكيل الحضارة، بل تعمل على ضمان استمرار هذه الحضارة وحمايتها من عوامل وأسباب الإنهيار والأفول. فهي تحل لنا مشكلة نفسية اجتماعية أخرى ذات أهمية أساسية تتعلق باستمرار الحضارة. فالتجديد الحضاري عند "مالك بن نبي" امتداد لأبعاد كثيرة ومختلفة وهي إنسانية،ونفسية،واجتماعية،وأخلاقية، وجمالية، وهذه الأبعاد كلّها ذات طابع روحي ديني تعود إلى بعد روحي، يكون وراءها يصنعها جميعا،ويحرك التجديد الحضاري،ويضع الإنسان في التاريخ، ويمكنه

من بناء الحضارة ويحافظ على استمرارها ويحقق الوجود الإنساني بتحقيق غاياته القريبة والبعيدة وهي غايات الإسلام ومبتغاه ومقصده[33].

سابعاً- مظاهر التجديد عند مالك بن نبي:

1-التمازج بين النظرية والتطبيق: لعلّ أهم شيء أساسي جعل "مالك بن نبي" من بين مجدّدي العصر الحديث في العالم الإسلامي، هو أنّه لم يكن فقط مجرد مفكر قام بسرد سلسلة من الحلول اللازمة للنهوض الحضاري،بل إنّه قد جمع بين طرفي المعادلة اللازمة لأيّ نهوض أو تجديد، ونعني بها التمازج بين "النظرية والتطبيق". وفي هذا السياق التجديدي نجده يستعين بالتجربة اليابانية، فمن عام 1868م إلى 1905م قفزت اليابان من مرحلة العصور الوسطى إلى مرحلة الإنجازات والتطورات. فالعالم الإسلامي إذا أراد أن يجتاز المرحلة نفسها، فما عليه إلاّ أنّ يقتبس من الكيميائي طريقته، فهو يحلّل أولاً المنتجات التي يريد أن يجري عليها عملية التركيب الحضاري فإذا سلكنا هنا هذا المسلك قررنا أنّ كل ناتج حضاري تنطبق عليه الصيغة التحليلية الآتية: ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت، ففي المصباح مثلا يوجد الإنسان خلف العملية العلمية والصناعية التي يعد المصباح ثمرتها، والتراب في عناصره من موصل وعازل، أمّا الوقت يبرز في جميع العمليات البيولوجية والتكنولوجية، وهو ينتج المصباح بمساعدة العنصرين الأولين: الإنسان والتراب" ولم يكتف "مالك بن نبي" بما ذكر، وهو بصدد رسم معالم الطريق لمسلم اليوم، لتحقيق انطلاقة حضارية راشدة تساعده على انجاز البناء الحضاري المعاصر، فيواصل تحليله لهذه الصيغة الرياضية، فيقول: "فالصيغة صادقة بالنسبة لأي ناتج حضاري، وإذا ما درسنا هذه المنتجات حسب طريقة الجمع المستخدمة، فسنتهي حتما إلى ثلاثة أعمدة ذات علاقة وظيفية: حضارة = إنسان +تراب + وقت. وتحت هذا الشكل تشير الصيغة إلى أنّ مشكلة الحضارة تتحلّل إلى ثلاث مشكلات أولية:

مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدّس المنتجات، وإنّما بأن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها"[34].

2 . بين الفكرة والواقع: من أهم المظاهر الأساسية التي يمكن إستخلاصها من خلال تحليلنا لمنهج البحث في فلسفة عند "مالك بن نبي" هو صياغته للعلاقة بين الفكر والواقع، وهذا حينما حاول إيجاد العلاقة بين الوسائل التي يملكها المجتمع بالغايات التي حدّدها هدفا له، وهذا من خلال طرحه لمشكلة الفعاليةالحضارية(أو التجديد الحضاري)،وهو بحث في العلاقة المتبادلة بين العناصر الثقافية التي تؤثر في البنية الحضارية، وفي مدى ملائمة هذه القيم والأفكار للغايات التي تسعى الحضارة لتأصيلها في محيط الإنسان الاجتماعي[35].

وفي هذا السياق يمكن القول بأنّ التجديد عند "مالك بن نبي" إنّما هو عملية بنائية تستهدف إقامة حضارة بواسطة نظام من العلاقات الاجتماعية، أو هو تحويل الواقع الاجتماعي المتخلف إلى تركيب حضاري، عن طريق شبكة العلاقات الاجتماعية، فالتغيّر الاجتماعي بالضرورة هو من صنع الأشخاص والأفكار والأشياء جميعا، ولابدّ من توفر صلات ضرورية بين هذه العناصر كي يؤدي التغيّر الاجتماعي وظيفته ويتحقق الوصول بالمجتمع إلى الحضارة، والأشياء التي تنشأ نتيجة التفاعل بين العناصر الثلاثة الأولى الأشخاص والأشياء والأفكار، وترابطها في كيان عام من أجل عمل مشترك هو تحقيق الحضارة[36]وفي ضوء هذا المنظور النسقي للتجديد الحضاري المنبثق عن فلسفة حضارية واعية، يبدو "مالك بن نبي" - كمفكر اجتماعي ومجدّد إسلامي أصيل- يقترب في كثير من موضوعاته إلى دراسة الواقع الاجتماعي حيث تشغل نظريته في هذا الصدد جانبا هاما من أعماله، بما ينبثق منها من أفكار ومعالجته لقضايا الثقافة والبناء الاجتماعي، وقد امتاز

،

في كل ذلك برؤية سوسيولوجية خاصة، وخصوصية في المنهج فرضها وعيه المتميز والمبكر، بضرورة أن يكون هناك علم اجتماع خاص بالعالم الإسلامي[37]، وللخروج من الأزمة يري "مالك بن نبي" من الضروري أن نعود إلى الدين والعقيدة والتي يفرضها الفهم الصحيح للإسلام لأنّه إلى جانب كونه عقيدة خالدة، فهو أيضا شريعة قادرة على احتواء الأزمة الحضارية للمسلم المعاصر، والعودة بمنحنيات الانكسار في الحضارة الإسلامية إلى مسارها الذي أراده لها الحق تبارك وتعالى كخير حضارة تفطر عنها قلب التاريخ، لأنّ أمتنا هي خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتهدي البشرية الحائرة إلى استقامة المنهج وصدق الرسالة، وفق قيم الجمال والحق والخير والعدل[38].

3 . الإنسان ودوره في عملية التجديد الحضاري:دعا مالك بن نبي المسلم اليوم إذا كان فعلا جادا في تبني خيار التجديد الحضاري فعليهأن يتلمس العودة لإيقاظ روح الإيمان الموجودة فيه، وتقوية تكوينه العقائدي والأخلاقي، وذلك بنفس معيار الطاقة والفعالية التي أتسم بها المجتمع الإسلامي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث أنّ التاريخ الحضاري للبشرية يؤكد لنا بأنّ كلّ عملية تقدم وتطور لا يمكن أن تتحقق إلاّ إذا ارتبطت بوجود قوى داخلية تصنع هذا التقدم- أو التجديد الذي يكمن في بناء المسلم المعاصر على أسس روحية مستمدة من مفاهيم الفكر الإسلامي الصحيح، كما يؤكد أيضا على ضرورة الإبداع الذاتي في عالم الفكر وعدم الاعتماد على الفكر الغربي كلية، وذلك لأنّ هذا الفكر وليد بيئته الخاصة، ووليد روح إنسانية لها سمتها الخاصة به[39].من هنا يمكن القول بأنّ التجديد الحضاري، كما يراه "مالك بن نبي"،لن يتحقق في أرض الواقع إلا بفعل ديناميكي يحركه،لأنّنا نجد في بداية كل حضارة ثمة فكرة فاعلة قادرة على تغيير ما بالنفس، ومن ثم تغيير ما بالعقل، وذلك من أجل الإقلاع الحضاري

نحو التجديد،إنّها الفكرة المشحونة بالرؤية الكونية وبالمسؤولية الإنسانية الشاملة،إنّها الطريق الشرعي والفطري لصناعة الحضارة الإنسانية والتقدم[40].

1. البناء الحضاري وتحقيق التقدم:الحضارة -عند "مالك بن بني"- هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه[41]، فالحضارة إذن تمثل حصانة لحياة الإنسان، وفيها تأمين على مصيره، وتوفير لاحتياجاته، وحفاظا على شخصيته الوطنية والدينية. فالحضارة يصنعها تاريخ الإنسان بعد أن تمدّه الطبيعة بالطاقات، ولكن إذا أحسن تكييف هذه الطاقات، وتوجيهها نحو أهداف محددة واضحة، وهذا الأمر مرهون بمدى الانسجام بين النمط الفكري الذي يحكم هذه الحضارة عبر التاريخ، وبين الطاقات المتوفرة أو التي يمكن توفيرها لتنفيذ الجانب العملي. وصناعة التاريخ عند "مالك بن نبي" تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاث:أ/تأثير عالم الأشخاص.ب/ تأثير عالم الأشياء .ج/ تأثير عالم الأفكار.لكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من عالم الأفكار، يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء، من أجل غاية يحدّدها عالم الأشخاص. وكما أنّ وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة فإنّ توافق هذه الوحدة مع الغاية منها، وهي التي تنسجم في صورة حضارة[42] يعطي هذا النسيج المطلوب لصنع الحضارة مفهوما يقيم التوازن بين وجهي الحياة المادية والمعنوية، وبهذا التوازن يتم الالتزام بالإسلام من أجل التحضر، حيث ترفض أحكامه، السقوط بالإنسان ليصبح عبدا للأشياء. فأي توجه حضاري جديد يتطلب إعادة قضية التوازن الروحي-المادي، وإذا ما توحدت ذات الفرد يكون ذلك خطوة على طريق توحد

،

المجتمع، أي بناء شبكة علاقات اجتماعية وبقدر ما تنجح هذه العلاقات التي تسير بتوازن يمكن أن تعجّل في بزوغ فجر حضارة جديدة تعيد الدور للعالم الإسلامي وللعرب على المستوى العالمي. وقد رأى "مالك بن نبي" أنّ الحضارة إذا كانت هي استيراد أشياء الأمم الأخرى، أو استعارة فكرها ومنتجاتها، فإنّ في هذا الفهم بذرة موت الطموح الحضاري للشعوب، ولذلك يلاحظ أنّ الاستعمار يحاول دوما تنمية هذا الفهم العقيم للتحضر[43]،ولا ينسى "مالك بن نبي" أهمية الروح، فالروح إذا ما اندفعت بالإنسان فإنّما تندفع به لتوظف طاقاته وفكره ولابد من التأكيد على أنّ السمة العامة لهذه الحضارة تنبع من قواعد الأخلاق التي تضع في الأولوية كرامة الإنسان وحقه في العيش الكريم[44]، فعناصر الحضارة من إنسان وتراب ووقت لن تجدي نفعا إن لم يكن الجامع المشترك لها الأخلاق بمعناها الواسع، وهذا مبدأ عام وأساس وبفقدانه تفقد العناصر الثلاثة فعاليتها التحضيرية. وحتى العلوم بالرغم من اختلاف وتنوع مجالاتها من علوم إنسانية، إلى طبيعية إلا أن تلازمها مع الأخلاق هو الذي يجعل منها رسالة حضارية لها صفة العالمية[45]، فلتحقيق البناء الحضاري علينا إذن أن ننتقل من تكديس الأشياء إلى بنائها وفق إطار من النموذج المستلهم لروح الثقافة، وهو العنصر الأساسي الذي يفتقد إليه العالم الإسلامي فعملية البناء الحضاري تقوم على أساس حركة شعب أيقظته ثورة على الواقع المتخلّف، وتهيأت له أفكار نابعة من تراثه وطبيعة تركيبته الثقافية والاجتماعية من أجل تحقيق رؤيته الفلسفية وقيمه العقائدية. ومن هنا نستنتج أنّ الحضارة لا تنبعث -في نظره- إلاّ بالعقيدة الدينية الصحيحة، كما هي واضحة في الإسلام، ولا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء، بل بمقدار ما فيه من أفكار، ولقد يحدث أن تلم بالمجتمع ظروف أليمة كأن تحدث كوارث طبيعية أو تقع حروب، فتمحو منه عالم الأشياء محوا كاملا، إلا أنّه إذا استطاع أن ينقذ أفكاره فإنّه

يكون قد أنقذ كل شيء، إذ أنّه يستطيع أن يعيد بناء عالم الأشياء مثلما وقع لألمانيا عقب نهاية الحرب العالمية الثانية.

2 . **بناء الإنسان:** إنّ بناء الفرد يستلزم عامل الزمن، وأسلوب التدرج، وعامل التوعية، والتأصيل. ويؤكد "مالك بن نبي" على أنّ بناء الإنسان منذ فجر التاريخ هو من مهمة الرجال، لأنّ الطبيعة لا تهب لنا كائنا جاهزا، كما أنّ الله لا يصنع إنسانا كاملا؛ ولقد كانت صيحة «بن نبي» كمثقف دوما يجب أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت في بناء أهدافهم. فالقضية الحضارية ليست قضية آلة يمكن توفير المال بشتى الوسائل لإحضارها، بل قضية إنسان مهيأ لتوجيهها واستخدامها، وبالتالي فإنّ «مشكلة التجهيز مرتبطة بقضية الإنسان والأفكار وأنّ المحصول الاجتماعي للآلات مرتبط بفعالية وسلوك الفرد الذي يستخدمها»[46].

كما أنّ حل مشكلة الإنسان غير متوفرة في الفكر السياسي الذي يوجه حضارة الدول الكبرى، لأنّه فكر مادي بفرعيه: الرأسمالي والماركسي. ففي هذا الفكر تسود حلول أحادية الجانب أساسها المادة؛لأن هذه الفلسفات لا ترى في الإنسان إلا عالم أعداد وأرقام، بينما المسألة تختلف جذرياً في الإسلام الذي ينظر للإنسان من زاوية الاستخلاف في الأرض وأنّ كل ما في الكون من موجودات ومخلوقات مسخرة له حيث نجد "بن نبي" يقول: (إن الإنسان ليس في نظر المسلم الكم الذي تجري عليه الإحصائية والوزن، أي الشيء الذي تجري عليه تجارب المختبر وعمليات المصنع، وحاجات الجيش. بل الصفة التي قرنها الله بالتكريم في سلالة آدم، فالمسلم يكرم هذه الصفة بصورة مطلقة. كما هو منتظر فإنّ هذا التكريم له آثاره المحسوسة في الحياة، في التشريع وفي الآداب وفي العادات.)[47].

3 . **تحرير الإنسان** :من هنا بات من الواجب أن نبدأ في تحرير ذات الإنسان من الاستسلام أمام الغزو والاستعمار وذلك بأن تتدرب هذه الذات على

استخدام الوسائل والقدرات المتوفرة لها، حتى تحصن وجودها من إستهداف المستعمر-بكسر الميم- لها،والذي ينوي إفقادها الفاعلية، وروح التقدم والطموح، تمهيدا لتحويلها إلى(كم) مهمل يتصرف فيه كيف يشاء، وبذلك تبدأ ثورة التغيّير عندما ينجح الإنسان في تحرير نفسه من عقد النقص والانبهار بمظاهر الغرب،وهذا يتم عن طريق تحريره من الترسبات الوراثية في مجال التواكل والخرافة، وبإعادة الثقة بينه وبين قناعاته وعقيدته وسلوكه وعمله. فليس المهم في بناء الإنسان الجديد أن نبدل له نمط عيشه أو زي لباسه ونوعية أثاث منزلة ومكتبه، ونوع سيارته وكمالياته، ولكن المهم أن نحدّد له إطاره الحضاري في مجال الثقافة والأخلاق والاقتصاد وكافة المجالات، وبشكل آخر أن نقتلع ونصفي القابلية للاستعمار من عالمه الداخلي، حتى تنطلق طاقاته، ولتصفيته من عالمه الخارجي.فكل تغيير يطرأ على أمّة معينة يجب أن يكون مرهونا بتحرير الإنسان، فحتى تحرير التراب والأرض يجب أن يسبقه تحرير الإنسان، لأنّ ذلك هو النهج الموصل للتخلص من الاستعمار،لأنّه قد تتغير خريطة توزيع الملكية في الوطن، وقد تسند إلى أبناء الوطن وظائف كان المستعمرون يشغلونها،وقد تبدل الحروف اللاتينية بحروف عربية على واجهات ولافتات الحوانيت،إلا أنّ التغيّيرات هذه جميعها تصبح مجرد سحر للأبصار ولا يستقر أمرها إذا لم يتغير الإنسان نفسه[48].من هنا فالبدء من الذات هو أساس الإصلاح والتغيّير، وتجاهل دور الإنسان هو قصور في وعي خطورة هذا الموقف، وهو ما يترجمه خطأ السياسات التي اتبعها العالم الإسلامي في الصميم،فقد اتجهت في كفاحها إلى المستعمر،دون أن تلتفت إلى الفرد الذي تسخره للقضاء على الاستعمار[49]،فتتحقق ثورة الحرية والتقدم يبدأ من النفس،وبهذا تتعدل شخصية الإنسان،ويتم توازنها، وتتعانق جوانب الروح والمادة فيها،وبهذا النوع من الأفراد تعود الروح القرآنية إلى توجيه السلوك في المجتمع،فتكون الثمرة نهضة شاملة في العالم

الإسلامي والعربي.لأنّ الذي يستطيع أن يجعل من العالم جديدا هو الذي يستطيع أن يبني إنسانا جديدا قادرا على تحمل مسؤولية وجوده ماديا وروحيا[50].

فالطريق إلى المشاركة في مصير الإنسانية مرهون إذن بقدرتنا على بناء ثقافتنا وفق النموذج المستمد من قيمنا الحضارية التي احتوت الإنسانية جميعها. فالإسلام ليس ديننا فحسب، بل إنّه حضارة زودت عالمنا الإسلامي بالعقائد المختلفة بالنمط والأسلوب والنظرة إلى الإنسان نظرة تتفق والحقيقة العلوية المطلقة، ومن هنا تأتي أهمية ودور المثقف ووظيفته. لأنّ الوعي الاجتماعي مرتبط بمدى نشاط المثقف الحيوي، فهو عقل الأمة، والمرآة العاكسة لأمراضها والذاكرة المحركة والمشكلة لهويتها. وإذا كان "ديكارت" قد وضّح أن المعيار المميز للشعب الهمجي، هو مدى شيوع التفلسف الصحيح، فإنّ "مالك بن نبي" يعتبر أنّ ما يميز المجتمع المتحفز للتحضر عن غيره، هو مدى فاعلية المثقف. إنّ بناء الإنسان مرتبط ارتباطا وثيقا بمدى ما يقدمه المثقف في العالم الإسلامي من خدمات خاصة في مجال التوعية والتعليم. لأنه –في نظر بن نبي - قبل أن نبني الإنسان الجديد، يجب أولا أن نبني المثقف. ويرى "عبد القادر بوعرفة" أنّ الشعب الجرماني تفطن إلى هذه النقطة الجوهرية، ممّا جعل "بسمارك" يعتبر أنّ إصلاح الفرد أمر مستحيل فاتجه أولا إلى إصلاح من يصلح الفرد، أي إيجاد المثقف. لأنّه (المثقف) يمثل دورين أساسيين في كل عمل حضاري، دور المرآة التي تعكس الواقع الحقيقي دون زيف ولا خداع، ودور المصباح الذي ينير الطريق أمام الجيل المتعطش للتحضر. ويبيّن "بن نبي" أنّ المجتمع الإسلامي بحاجة إلى مثقفين من حجم "محمد إقبال" الذي يعتبر في رأيه المثقف الحيوي والنموذجي في نفس الوقت، لأنّه استطاع تصفية الأفكار الميتة المشحونة في نفسه عن طريق الوراثة الاجتماعية والثقافية الاستهلاكية، وبالتالي اكتسب قابلية للتحضر. لأنّ دور المثقف في

،

نظر "مالك بن نبي": هو توعية المجتمع بالصعوبات التي يعيشها ومحاولة انتشاله من الضياع، وتوجيهه نحو الطريق الأسلم للبحث عن الهوية. كما أنّ عليه ترميم شبكة العلاقات الاجتماعية التي أصابها الانحلال التي أصبحت تشبه -من حيث العلاقة- بيت العنكبوت، والمجتمع بالصفات السالفة لا يمكنه الشروع في التحضر إلا إذا اكتسب شروط موضوعية وأخرى ذاتية تدفعه نحو الحضارة، يقول "بن نبي": (ومن هنا ينبغي على المجتمع، عندما يشرع في النهوض أن يرمم ويصلح شبكة علاقاته الاجتماعية، ليتغلب على الصعوبات الناشئة في نطاق علاقاته السلطوية)[51].

وهكذا يتضح لنا أنّ الوعي التاريخي، عند "بن نبي" كان واضحا في مواقفه النقدية إزاء الحضارة الغربية وفي تأكيده على الأسس الروحية والأخلاقية للبنيان الاجتماعي، وقوله بضرورة مراعاة البعد الإنساني في الجوانب التنموية. وكان في معظم كتاباته وتحليلاته السلوكية والاجتماعية والتاريخية، وما صاغ من مفاهيم وموجهات فلسفية وتربوية قد قدم فكرا مميزا حيّا، وعرض معالجات دقيقة وملاحظات نقدية يقظة يمكنها أن تشكل منبعا خصبا لتغذية وتنشيط التفكير الإسلامي المعاصر وإضاءة واعية ومستقبلية لما يحدث في قرننا الواحد والعشرين، الذي يعاني نفس المشكلات التي عاشها "مالك بن نبي" في منتصف القرن العشرين، وهي نفس مشكلات عالم العولمة الذي يدفع بالعالم إلى مزيد من الشقاء والمعاناة في ظل تدهور بيئي وكوني شامل ومريع، والاستغلال الرأسمالي، الذي تمارسه الدول العظمى والشركات العملاقة للهيمنة ليس على مقدرات وثروات العالم العربي والإسلامي بل مقدرات العالم أجمع.

إنّ العالم العربي والإسلامي -في نظر "مالك بن نبي- يملك القدرات التي تؤهله لإنقاذ البشرية ولكن ذلك يحتاج إلى الإرادة المستقلة المتطلعة إلى التقدم، والتخلص من الواقع المتخلف الذي يفرضه الارتباط بالغرب،

والإطار الشامل لأي تحول ثقافي ببعد إنساني وطابع تقدمي، هو الإسلام، ومهما كان الأمر، فإنّ للإسلام في هذا التوقع العالمي لتحديد ثقافة شاملة دورا كبيرا، إذ هو يأتي بعناصر ثقافية جوهرية، كما يأتي بعناصر جغرافية وسياسية ذات أهمية خاصة.. ولكنا ندرك أيضا أنّه لكي يؤدي الإسلام بصورة فعالة هذا الدور المزدوج، فإنّ عليه أن يترجم قيمه الروحية إلى نظام اجتماعي، كما يترجم إليه جميع إمكانياته الطبيعية، يجب أن يحول هذه وتلك إلى حلول مادية للمشاكل التي تواجهه في الإطار الإنساني.

ثامناً. الخاتمة:

من الواضح أنّ التجديد الحضاري تصنعه جملة من الشروط ويتجلى في جملة من الميادين التي تمثل مظاهر الحضارة ومعالمها، ويمثل هو ذاته عامل البناء الحضاري لكل مجتمع فهو يمثل الديناميكا الحضارية لكونه استراتيجية شعب يريد التحضر وينفر من التخلف ويرغب في التطور الروحي والمادي، ولكونه أخيراً نظاما يُنتهج وخطة تُتبع لتطوير منتجات الحضارة الفكرية والمادية، للمحافظة على منتجات الحضارة القائمة واستمرارها من خلال الإبداع في مختلف المجالات ليتحقق التقدم والازدهار،وقد يحتاج أيّ مجتمع إلى التجديد الحضاري حينما يحرص على بعث وإحياء قيم وأعمال وعادات طيبة نافعة يكون قد تخلّى عنها في وقت سابق، لكن في هذه الحالات التي يكون فيها التجديد الحضاري جوهر كل العمليات الحضارية وأساس "الديناميكا الحضارية" عند ميلاد الحضارة أو عند تطورها أو عند إصلاح ما تمّ إفساده، وحتى في عملية البعث والإحياء وإعادة البناء، تقف أمامه جملة من الأسباب تمنع حركته وتقضي على بوادره وعلى الشروط التي تصنعه فيشتد التخلف وتتثبت أسباب الجمود والتحجر، هذه الأسباب المانعة لقيام الحضارة ولقيام التطور الحضاري وإبعاد أي فعل لأجل البعث وإعادة البناء

،

وهي التي تمثل عند "مالك بن نبي" موانع التجديد الحضاري وعوائق استثمار واستغلال الرأسمال الحضاري، وقد حدّد "مالك بن نبي" في أكثر من بحث وفي أكثر من كتاب ومحاضرة شروط نهضة أي شعب وهي شروط الحضارة معتبرا إيّاها المشكلة الأم في حياة الإنسان، فالحضارة مرتبطة بعوامل بناء كما ترتبط بعوامل هدم للبناء، وأسباب تقتضي البناء في مرحلة ما قبل الحضارة هذه الأسباب التي تتطلب شروط البناء أو هدمه ترتبط بحياة الفرد والمجتمع في جميع مجالاتها الروحية والفكرية والاجتماعي. تعكس فلسفة "مالك بن نبي" في تعاطيها مع الدين والثقافة والعلم والسياسة والتاريخ والحضارة عامة فتح عقل الإنسان العربي الإسلامي المعاصر على هموم ومشكلات عصره،وعلى قضايا الثقافة والحضارة والأصالة والمعاصرة والثبات والتغير،وهي مشكلات الأمة وقضايا الإنسانية جمعاء، إنّه عقل همّه الأكبر ومشكلته العويصة محاربة التخلف والانحطاط،والأخذ بأسباب التحضر والتقدم والبناء الحضاري، وعقل مبدع صاحب دين وفكرة دينية، وصاحب علم ونظرية علمية، وصاحب تقنية وصاحب فكر وفلسفة، يعتبره بعض المفكّرين المعاصرين همزة وصل بين النهضة والصحوة في سياق تاريخي جمع بين الماضي والحاضر والمستقبل وصاحب نسق فكري متكامل في التعاطي مع مشكلات الحضارة دينياً وفكرياً وثقافياً وعلمياً واجتماعياً ومادياً واقتصادياً.ولقد تبيّن لي وبوضوح من قراءتي لبعض الجوانب الهامة في فلسفة الحضارة عند"مالك بن نبي"،أنّ ما يجمع بين محاولته ومحاولات غيره من مفكري الإسلام في العصر الحديث والمعاصر هي الظروف التاريخية الزمنية والمكانية المتشابهة،والتي فيها نبتت فكرة الإصلاح عندهم، فهي متشابهة تماما، حيث الإسلام والاستعمار والتخلف في العالم الإسلامي من جهة والحضارة والعلم والتكنولوجيا في أوربا الحديثة والمعاصرة من جهة أخرى، شكّلت روافد ومصادر الفكر الإصلاحي في عصرنا، وأوجد وحدة في

المبادئ والأهداف والتطلعات، فالبحث عند "مالك بن نبي" جاء ذا طابع علمي واقعي، وجاء الإصلاح بطابع اجتماعي علمي واقعي تاريخي، وجاء منهج البحث قائما على التغيّير في الفرد والمجتمع، وعلى القضاء على أسباب التخلف والأخذ بأسباب الحضارة كما هي في نظرية الحضارة، مصدرها التوجيه الديني والأخلاقي والعملي مع الاستفادة من خبرات وتجارب الآخرين العلمية والحضارية، ولم تكن المحاولة خاصة أو موجهة لفئة بعينها بل جاءت عامة تشمل العالم المتخلف والعالم العربي والإسلامي جزء منه لكونها مشروع تحرر واستقلال وإصلاح ونهضة وتحضر، وهو مشروع يخص أي عالم متخلف يحتاج إلى الخروج من التخلف وأية أمة تسعى نحو الريادةوقد جاءت فكرة التجديد والإصلاح في المشروع نتيجة واقع المسلمين المتردي، وهي محاولة فكرية لتغيير النفس والفكر والواقع في العالم الإسلامي،وقد شكّلت محاولته رؤية فلسفية إلى الإنسان والحياة والتاريخ والحضارة، وتمثّل مشروع خطة ذات طابع فكري نظري، للنهضة وللتجديد ولبناء الحضارة، من أجل الدخول إلى المعترك الحضاري، واحتلال أمة الإسلام لمكانتها اللائقة بها.

،

تاسعاً :الهوامش :

1. محمد إقبال، فيلسوف وشاعر صوفي، هنديّ مسلم ولد بشمال الهند سنة 1873.درس بلاهور ثمّ سافر إلى أوروبا سنة1905 فدرس الفلسفة والحقوق بجامعة كامبردج بإنجلترا، تحصل على دكتوراه في الفلسفة من مونيخ بألمانيا. عاد إلى لاهور سنة1908حيث درّس الفلسفة واشتغل بالمحاماة وشارك في النشاط السياسي إلى أن توفّي سنة 1938.
2. محمد إقبال،تجديد التفكير الديني في الإسلام: تعريب عباس محمود . سلسلة معالم الحداثة، دار الجنوب للنشر ،بيروت، 1996.ص ص 147،109
3. سورة البقرة الآية 30.
4. المرجع السابق،ص112
5. حسن حنفي،التراث والتجديد،(موقفنا من التراث القديم)المركز العربي للبحث والنشر القاهرة 1980،ص 15
6. مالك بن نبي،آفاق جزائرية .(مشكلات الحضارة).ت عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق سوريا ط9، 2009.ص ص 46 ،47
7. ابو الاعلي المودودي،موجز تاريخ تجديد الدين'وإحيائه (واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم)مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع،دار الفرقان للنشر والتوزيع 1982،ص 125
8. –ابن منظور،معجم لسان العرب في اللغة، دار صادر للنشر ،بيروت،2005،ص 240
9. - عبد الله الزبير عبد الرحمان صالح :مفهوم التجديد وتجديد الدين،مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ،سنة 2004. الجزء 1 ،ص 63 _64

10. - جيلالي بوبكر:الإصلاح والتجديد الحضاري لدي محمد إقبال ومالك بن نبي (بين النظرة الصوفية والتفسير العلمي)، دار الأمل، تيزي وزو الجزائر،2011،ص 184
11. حسن حنفي،التراث والتجديد، (موقفنا من التراث القديم)،المركز العربي للبحث والنشر القاهرة 1980 ،ص108
12. مالك بن نبي،شروط النهضة (مشكلات الحضارة)ت،عبد الصبور شاهين،دار الفكر دمشق سوريا ،ط9 ، 2010 ،ص ص 68،69
13.سورة الإسراء،الآية 70
14. مالك بن نبي،شروط النهضة،ص 23
15.المصدر نفسه ص 90
16.مالك بن نبي،تأملات،(مشكلات الحضارة)،ت.عبد الصبور شاهين،دار الفكر دمشق، سوريا،ط 9 ، 2010،ص ص 198،199
17.سورةالرعد ،الآية 11
18. مالك بن نبي،شروط النهضة ،ص103
19.مالك بن نبي،دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين، ت.عبد الصبور شاهين ،دار الفكر دمشق سوريا ،ط 3، 1992،ص 58
20.مالك بن نبي،تأملات(مشكلات الحضارة)، ت،عبد الصابور شاهين ،دار الفكر دمشق، سوريا، ط9، 2010ص 166
21. مالك بن نبي شروط النهضة ،ص 106
22.مالك بن نبي،ميلاد مجتمع(مشكلات الحضارة) ت.عبد الصبور شاهين، دار الفكر سوريا،ط9. 2009 . ص 10
23. المصدر نفسه،ص 24
24. مالك بن نبي، شروط النهضة،ص 148
25.سورةالرعد، الآية 11.
26.وجيه كوثراني،لماذا العودة إلى بن نبي عندما يطرح منهج التغيّير،ندوة الكويت، 2015 ص 68
27.عائشة المناعي،مظاهر التجديد في فكر مالك بن نبي مجلة المسلم المعاصر بقلم عبد الحميد الادريسي،العدد 101 ،سبتمبر 2001،ص 38
28. مالك بن نبي،ميلاد مجتمع،ص 42

،

29. مالك بن نبي، شروط النهضة ، ص ص 102،104
30. مالك بن نبي،ميلاد مجتمع،ص 96
31.سورة القلم ، الآية 4
32. مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 98
33.المصدر نفسه،ص87
34. -المصدر نفسه،ص 94
35.سلميان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت،1993، ص151
36.نورة خالد السعد،التغيير الإجتماعي في فكر مالك بن نبي :دراسة في بناء النظرية الدراسة في بناء النظرية الإجتماعية : ار السعودية للنشر والتوزيع ،ط 1،ص601
37.د. علي القريشي، التغيّير الاجتماعي عند مالك بن نبي منظور تربوي لقضايا التغيّير في المجتمع المسلم المعاصر، الزهراء للإعلام العربي،القاهرة 1409 هـ- 1989م،ص 692
38. سليمان الخطيب: ،فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، ص ص 186،781.
39. -المرجع نفسه،ص 432
40.عبدالحليم عويس،الوظيفة الحضارية لأفكار مالك بن نبي، مجلة الفيصل،العدد96. دار الفيصل الثقافية، الرياض شوال 1413هـ - ابريل (نيسان) 1993م، ص 24
41. مالك بن نبي،آفاق جزائرية (مشكلات الحضارة) بإشراف ندوة مالك بن نبي .ت عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق سوريا ط9، 2009.ص ص 46، 47
42. المصدر نفسه، ص ص23، 24
43. مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 45
44.مالك بن نبي،فكرة الأفريقية الآسيوية (مشكلة الحضارات)ت.عبد الصبور شاهين،إصدار ندوة مالك بن نبي ، دارالفكر دمشق سوريا،ط 3 ،1992،ص 134
45.أسعد السحمراني:مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، دار النفائس بيروت،لبنان،ص23
46.مالك بن نبي، شروط النهضة، ص104
47.مالك بن نبي،في مهب المعركة ،(ارهاصات والثورة)ت .عمر مسقاوي دار الفكر دمشق،ط3 ،1981 ، ص ص 164،143

48. مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه. دار الوعي للنشر والتوزيع ط1،2013 رويبة الجزائر) طبع بالجزائر باذن من دار الفكر دمشق _سوريا، ص ص 44،49

49.مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي ،ت. عبد الصابور شاهين ، دار الفكر دمشق ط 1،1986، ص106

50.المصدر نفسه،ص 192

51.مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه،ص ص48 ،50.